International Journal of Language Academy
ISSN:2342-0251
DOINumber:http://dx.doi.org/10.18033/ijla.36859
Research Article

Volume 7/3 September 2019
p. 298/313

ArticleHistory:
Received
01/08/2019
Received in revised form
02/08/2019
Accepted
19/09/2019
Availableonline
20/09/2019

CRITICAL DISCOURSE ANALYSIS: A READ IN COGNITIVE AND HISTORICAL CONTEXTS

Mahmoud Ayed Attia[1]

Abstract

The issue of critical discourse analysis has become a concern for researchers, literary scholars and critics themselves, as a result of the breadth of critical lesson areas and the variety of theories, methods and terminology. Since criticism is so important, it has also become a subject for study and analysis. While the literary text is bearable, criticism in general is unlikely because it is constantly formed in a space of knowledge concerned with intellectual origins, adheres to the methodological limits, and belongs to a tree of mind. This means that the analysis of critical discourse requires greater accuracy, and can be practiced in a very private and fertile space, within the so-called (criticism of criticism). Our research proposes to follow three main axes in the analysis of critical discourse. It deals with the priorities of the emergence of criticism of literary texts and historical foundations and monitors the nature of the critical lesson and its affiliation, as it evidences the power of other discourses on critical discourse represented by the philosophical, religious, social discourse and others, that is, the power of the coordinator over criticism and the decline of its essential role. The second is the theoretical and conceptual axis. It deals with the intellectual boundaries of terms and concepts, which requires putting the concepts in their proper scientific quorum. The structure deals with literal criticism as a text, that is, the operative text of the critical text within its linguistic boundaries, which contributes to drawing the kinetics (text) of the critical discourse and its sin. The purposes are directed towards the interpretation of the process of assets and interaction such as: parties to the discourse and institution, and society, and others. As well as the interpretation that requires reading the extinct aspects of the meaning; especially in the texts of the original critical theories that need to be understood and accurate understanding in order to be accurate in application. From this scenario, our research suggests that the analysis be carried out with a vision based on the follow-up of its historical meanings, and the most important cognitive joints, with an intellectual methodology that looks at the overall issues to shed light on the ways in which its textual structure is formed and the potential of its knowledge.

Key words: Discourse, literary criticism, analysis, curriculum, texts.

[1]Assistant Professor-. Mosul University

تحليل الخطاب النقدي
قراءة في السياقات المعرفية والتاريخية

الأستاذ المساعد الدكتور محمود عايد عطية - جامعة الموصل

الملخص

صارت قضية تحليل الخطاب النقدي تشغل بال الباحثين ودارسي الأدب والنقاد أنفسهم، نتيجة لاتساع مجالات الدرس النقدي وتعدد نظرياته ومناهجه ومصطلحاته. ولما كان النقد على هذه الدرجة من الأهمية فقد تحول إلى مادة للدراسة والتحليل هو الآخر، وإذا كان النص الأدبي حمّال أوجه فإن النقد في الأعم لا يحتمل ذلك، لأنه يتشكل باستمرار في فضاء معرفي يعنى بالأصول الفكرية، ويلتزم بالحدود المنهجية، وينتمي إلى شجرة ذهنية ما، وهذا يعني أن تحليل الخطاب النقدي يتطلب دقة أكبر، والممكن أن يمارس في حيز شديد الخصوصية والخصوبة، ضمن مايسمى بـ(نقد النقد). يقترح بحثنا اتباع محاور ثلاثة رئيسة في تحليل الخطاب النقدي؛ الأول:المحور التاريخي؛ ويتناول أوليات ظهور نقد النصوص الأدبية وأسسها التاريخية ويرصد طبيعة الدرس النقدي وانتماءه،إذ يستجلي سلطة الخطابات الأخرى على الخطاب النقدي متمثلة بالخطاب الفلسفي والديني والاجتماعي وغيرها، أي سلطة النسقي على النقد وانحسار دوره الأساس. والثاني: المحور النظري والمفهومي؛ ويعنى بالحدود الفكرية للمصطلحات والمفاهيم، مما يقتضى وضع المفاهيم في نصابها العلمي الصحيح.والثالث: المحور النصي، إذ يتطلب هذا الأخير مستويات بناء الخطاب وتفسيره ورصد مقاصد؛ فيتناول البناء حرفيّة النقد بوصفه نصا، أي منطوق النص النقدي بحدوده اللغوية مما يسهم في رسم حركية (نصيّة) الخطاب النقدي وخطّيّته، أما المقاصد فتتجه صوب تفسير سيرورة الأصول والتفاعل مثل: أطراف الخطاب ومؤسسته، ومجتمعه، وغير ذلك. فضلا عن التأويل الذي يستدعي قراءة الجوانب المندثرة من المعنى؛ وبالأخص في نصوص النظريات النقدية الأصلية التي تحتاج الى فهم واستيعاب دقيقين كي يكون التطبيق دقيقاً.

ومن هذا التصور يقترح بحثنا هذا إجراء التحليل برؤية تستند إلى متابعة منعرجاته التاريخية، ومتابعة أبرز مفاصله المعرفية، بمنهجية فكرية تنظر في القضايا الكلية لتسليط الأضواء على كيفيات تكوّن بنيته النصية وتجلّي مكامن معرفته.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، النقد الأدبي، التحليل، المنهج، النصوص.

مدخل:

إن تحليل الخطاب النقدي يعني كونه مادة للدراسة والنظر، ومن المنطقي أن كل مادة يمكن أن تحلل لا بدّ أن تكون لها بنية محددة تحكمها على نحو عام، ولكن الخطاب النقدي قلما يمكن أن يكون كذلك، لأن الافتراض الأول يتطلب التساؤل في **ما الخطاب النقدي؟** ولكي لا تكون الإجابة ارتجالية، فإنها لابد أن تتطلب بحثا مفاهيميا ليس معتادا، لأن تساؤلا كهذا ينطوي على قدر عالٍ من التعقيد "فنقاد الأدب يتبنون

ويناقشون وجهات نظر شديدة التباين حول النقد وكيف يجب ان يكون"[2] وأحد أسباب هذا التباين هو تراكمية المعرفة النقدية، فكل حديث نقدي ذي بال يمثل إضافة حقيقية للخطاب النقدي بوجه من الوجوه، وسيرورة النقد وصيرورته لا تعني التجاوز أو القطيعة المعرفية التامة، فالممارسة النقدية قد تستعين بما يناقضها في لحظة من لحظاتها لضرورة تقتضيها دالة نصية ما.

إن خصوصية الخطاب النقدي متأتية من طابعه الجدلي الإشكالي فهو بالمحصلة ليس شيئا أو مفردة أو مصطلحا، إنما هو مفهوم مرن يستوعب عديد الأفكار المنظمة والنشاطات الذهنية المبرمجة ذات الاهداف المحددة، ومحاولة نفي النقد أو الحديث عن موته بدعوى اللاتحديد أو دعوى "أن مفهوم النقد هو في أساسه مفهوم مشوش، وأن اي تحليل مفاهيمي سوف يؤدي فقط إلى عرض المشكلة وليس إلى إنهاء ذلك التشويش"[3] هو أمر غير دقيق كما نعتقد، لأن محاولة تثبيت الخطاب النقدي وتوحيده تعني أننا نطالب بأن لا تقوم للنقد قائمة، إلا أن سعة الخطاب النقدي وشموله وتعدده ومقارنته بالحقائق الثابتة في غيره من المجالات لا تعني أننا نتحدث عن وهم أو خرافة تسمى الخطاب النقدي، فنحن نتحدث عن موضوع وهذا الموضوع موجود بالفعل والممارسة والاستمرار، فطالما كانت للنقد وظيفة فهذا يعني أنه له ما يبرره.

إذن المشكلة ليست في عجز النقاد عن توحيد خطابهم ورؤاهم ولا في عدم اتفاقهم على مذهب أو منهج، ولكن الحقيقة النقدية التي يمكن أن تكون نواة مشروعية الخطاب النقدي بوصفه حقلا له مكانة بين العلوم الانسانية الأخرى هي **طبيعة** هذا الخطاب، فالمناخ النقدي لا ينتعش في ظل التقوقع والانكفاء على سبيل واحدة، بل ينفتح في فضاء يتغيا إصابة هدف متحرك باستمرار وهذا الهدف يتمثل بالنصوص التي تحتاج إلى أدوات تطور ذاتها وتنتج أساليب جديدة كي تضارع خصوصية هذا الخطاب وتتمكن منها، وبما أننا نسير في فلك الثقافة واللغة فيجب أن نؤمن بضرورة التماس ما يعين على إدراك أهداف النقد وهذا يعني أن أي منجز نقدي قديم أو حديث يبقى يدور في مجرة الخطاب النقدي ويبقى فاعلا على مرور التاريخ النقدي، فتبقى حاجة الناقد قائمة للأفكار النقدية قديمة أم حديثة، كما أن "المناهج النقدية لا تموت ولا تنتهي بالمعنى الحقيقي، وإنما تتجاوز ولكنها تظل جزءا من تاريخ حركة النقد وتطوره"[4] فالشروط التاريخية للخطاب النقدي تقتضي تنوع هذا الخطاب على مختلف مستوياته من منطلقاته وأصوله إلى ظروفه وأطرافه فلا يمكن عد التاريخ النقدي يسير بخط نام ذي اتجاه واحد، بل هو يمثل منعرجات فكرية يمكن أن تشكل أو تستدعي إعادة قراءة تاريخ الخطاب النقدي، و"كل تاريخ النقد الأدبي يمكن أن نعيد كتابته من منظور مقامات التأليف التي هي الأشراط الحافة بنشوء مضامينه، وهي الظروف التاريخية التي ألمت بصياغته، وكذلك الملابسات الاجتماعية التي رافقت لحظات الإفضاء به، وربما هي أيضا المؤسسات الثقافية التي تنطق باسم الأعراف المجتمعية أو تترجم مقاصد القمم العليا في معمار السلطة القائمة"[5] , فمفهوم الخطاب النقدي إذن يحتضن أفكارا وثقافات ومعارف ومناهج شتى، وبقدر نصيب الناقد من هذه الأشياء تكون عدته المفهومية، وكلما زادت عدته المفهومية زادت فرصته في القدرة على إدراك الحقائق الأدبية، واتسع ذهنه لاستيعاب وظيفة النقد التي لا تتوقف على فهم النص أو تأويله، ولكنها تنطوي على إبداع اخر يتولد عن تصورات الناقد وأفكاره وذائقته ولغته، وبالمحصلة ستكون العملية النقدية عملية انتاج خطابات فكرية من

---

[2] سؤال منطقي- ماهو النقد؟: جون م .إيليس، ضمن: ماهو النقد؟: بول هير نادي، ترجمة: سلافة حجاوي، مراجعة: عبد الوهاب الوكيل، ص28.

[3] م.ن، ص35-36.

[4] دليل النظرية النقدية المعاصرة: بسام قطوس، ص13.

[5] الأدب وخطاب النقد: عبد السلام المسدي، ص306.

طراز خاص. ولذلك فخطاب النقد ليس ملحقا سطحيا للأدب، وإنما هو قرينه الضروري، أو هو تحويل السلوك التأويلي التلقائي إلى سلوك احترافي[6] وهنا تكمن خطورة الخطاب النقدي بوصفه متابعة واختراق، فهو متابعة لأنه يقتضي ضرورة احترام السنن والمناهج؛ التي تراكمت عبر العصور المعرفية المتتابعة التي تهم دارسي الأدب ونقاده بصرف النظر عن أزمنتهم وثقافاتهم. وهذا الجانب من الخطاب النقدي ينتمي إلى ما يسمى النظرية النقدية التي ترى أن قيمة الحقيقة الأدبية في قضية معينة، ولذلك فهي تسعى إلى وضع أنظمة معرفية متوازنة تساعد على فهم تلك القيمة وتسعى لاكتشافها من خلال سلسلة من العمليات ذات الجانب النظري التي يمكن تطبيقها عمليا، فـ "الأصل في النظرية النقدية أنها عالمية لا تنتمي إلى وطن دون آخر أو إلى أمة دون أخرى، ولكن خصوصية كل أمة تكمن في ثقافتها التي تجسدها لغتها وحضارتها وتعطيها من ثم هويتها"[7]. وهي اختراق لأن الناقد مطالب بإعطاء شيء جديد كيما يكون متفردا ومختلفا ومتميزا، ولا يتحقق الاختراق إلا عبر رؤية الناقد"وهي تتمظهر من شبكة من المكونات الذاتية والموضوعية والمعرفية والثقافية، وبوساطة عملية الاندماج الحر والفعال والمنتج بين الموردين المركزيين بين **المنهج/ الشخصية الناقدة** يشكل الخطاب النقدي وتتأسس هوية الكتابة النقدية"[8] ولا يمكن أن تكتمل صورة الخطاب النقدي في الذهن إذا تم تجاهل تاريخ النقد الذي بمعرفته تتحقق شرطية اكتمال الخطاب النقدي.

والفرضية التي بين يدينا هي أن الخطاب النقدي لا يتشكل إلا عبر شبكة من العلاقات المتضافرة من :**1- تاريخ النقد. 2- النظرية النقدية. 3- الإجراء النقدي/التطبيقي**، وتحليل الخطاب النقدي يجب أن يطال هذه الجوانب بطريق أو أخرى، لأن تجاهل أي جانب منها يعني وجود فجوة من حيثيات هذا الخطاب، ويمكن أن نوضح العملية بالشكل الآتي:

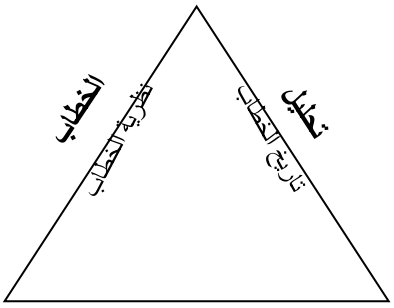

إجرائية الخطاب

النقدي

إذ يرتكز تحليل الخطاب النقدي على هذه المحاور، لأن المعرفة بتاريخ النقد تضمن معرفة بموضوع النقد وتحدده، بناء على الأنساق المعرفية لكل حقبة، ومن ثم النظرية النقدية التي تساعد في معرفة الأصول النظرية والفكرية لكل نظرية نقدية وتضع الافتراضات والتوجهات والوسائل الجديدة، وتسهم في

---

[6] انظر: نقد النقد، رواية تعلم: تزفيتان تودورف، ترجمة: سامي سويدان، مراجعة: ليليان سويدان، ص16.

[7] دليل النظرية النقدية المعاصرة، ص16.

[8] تجلي الخطاب النقدي: محمد صابر عبيد، ص117.

إنجاز مشروعها بتحويله إلى مناهج نقدية، وتحدد أطر مصطلحاتها وحدودها، وتضمن عدم الانزلاق في هاوية التلفيقية بتطبيق وظيفتها المنهجية، أما مجال التطبيق؛ فيتمخض عن إنجاز الفعل النقدي وتحقيق أهدافه التطبيقية واستراتيجياته الفكرية، إذن يمكن أن نقف على شبكة العلاقات التي تجعل من الخطاب النقدي خطابا ممكنا، وهي موضوع النقد ومنهجه وهدفه، وهذا ما يحقق اكتمال دائرة ما يسمى الخطاب النقدي.

أولاً: تاريخ الخطاب النقدي:

تتطلب حقيقة الخطاب النقدي معرفة بالحيثيات التاريخية لأولياته، وكيفيات نموه وظروف تحوله والآليات التي اعتمدها في مسيرته الطويلة، فمن المعروف أن بدايات الخطاب النقدي المنهجي المدون تعتمد على فروض واستنتاجات عقلية في جلها، لأن الأدلة الثابتة لم تكن تتوافر على نحو دقيق، فقد تكون هناك خطابات نقدية مندثرة بفعل الثقافات الشفاهية الأولى، كما يعتقد، بالاستناد إلى ظهور النصوص الأدبية الأولى التي لا تعرف لها بداية محددة لحد الآن، نتيجة لعدم توافر الأدلة الثابتة عن ذلك، مما يجعل الصورة التي ينبثق عنها الجدل النقدي مستمرا، وربما كانت الطريق الفضلى للتأسيس لتاريخ النقد هي اعتماد الفرضيات الشائعة عن تلك الأوليات وعن طبيعة ذلك النقد، إذ يبدو أن طبيعة النقد تتغير على وفق تغير النظرية النقدية، فتضع النظرية توجهاتها وأفكارها ومنطلقاتها بناء على نقد الأفكار السابقة، أو تطويرها، أو تخطيها وتحنيطها، على أنها مجرد ماض تنبغي معرفته وتنبغي مجاوزته في الوقت نفسه، فالتاريخ النقدي لا بد أن يكون فاعلا حتى في الاتجاهات المضادة التي تشتغل في جانب لا تريد له أن يكون جزءا من ذلك الماضي، إذن يجب أن تكون هناك مشاركة ثقافية تقوم على التفاعل أو المناقضة، وهذه المشاركة "تتطلب جهودا أكبر من خلال المعرفة التاريخية بالأشكال والتطورات المتغيرة في تاريخ الأدب"[9] وتاريخ النقد، لأنه هو الذي يحفظ تلك الأشكال ويسلط الأضواء على قوانين تكونها وتشكلها، ويسهم في مناقشة حيثيات ظهورها، وامتياز بعض تلك الأشكال على غيرها، فبينما كان النقد يعمل على حفظ التاريخ الأدبي ويناقش معطياته، فإن التاريخ النقدي هو الآخر بأمس الحاجة إلى ما يحفظ مقولاته، ويحدد هويته، ويناقش حيثياته، و"الفكر النقدي لم يحمل - بما يكفي- هموم الحيثيات المتصلة بإنتاج النص النقدي ذاته، لم يكن في قائمة الأجندة الإبستيمية بند خاص يتحدث عن نشوئية النص النقدي أو لنقل يتحدث عن جنينيكية ذاك النص"[10] لذا ستكون عملية تحليل الخطاب النقدي منقوصة ومشوشة من دون النظر إلى تلك الأوليات والحيثيات..

أ- الذوق الأدبي والخطاب النقدي:

إن ما يمكن معرفته عن تاريخ النقد يأتي من قراءة معطياته التي نشأت بوصفها ملاحظات قد لا يمكن تشخيصها، إذا افترضنا أن الاديب يعمل على تعديل عمله باستمرار ويعمد على انضاجه بالمتابعة الدؤوبة التي لم يكن له أن يسميها نقدا، فضلا عن وجود المتلقي الذي لم يكن له دور واضح في إنتاج فعل نقدي يسهم في التأسيس لبدايات نظرية فعلية، فثمة ملاحظات يطلقها هنا أو هناك لا تعدو أن تكون حكما ذوقيا، وهذا ينطبق على أوليات النقد في البيئة العربية وغير العربية القديمة ، وهنا تحديدا يمكن الوقوف

[9] نظرة وظيفية للنقد: ماري وجي فالديس، ضمن: ما هو النقد؟، مرجع سابق، ص135.

[10] الأدب وخطاب النقد، ص 300.

على نقطة مهمة في تاريخ النقد وتدعو إلى التمييز بين النقد واللانقد على نحو ابتدائي، فلا يمكن إدراج كل حديث عن الأدب تحت لائحة النقد "وكما قال هيوم... لا يمكن للنقد الذي لا يغوص في التفاصيل، ولا يمتلئ بالأمثلة والاستشهادات ، أن يكون مفيدا، فإن ما يجعل النقد قابلا لتوفير المعلومات، وللتمييز والتنور هو تلك القدرة على تحديد المزايا والعيوب .وهو عمل أشد صعوبة من الاستحسان أو الاستهجان"[11] وعلى هذا الأساس يمكن القول أن فاعلية النقد وخصوصيته تتطلب التمييز بين النقد والتذوق، فإذا كانت المسألة النقدي مجرد آراء عشوائية ترتبط بظروف شخصية المتذوق وأوضاعه، فهذا يعني أن النظرية في الحقائق الأدبية والمكونات الجمالية للنصوص لن تبقى لها قيمة، لأن الفكر هنا لا يتجه نحو النص وإنما يتموقع حول الذات التي قد تفتقر لسبل المعرفة النقدية، وتعجز عن تقديم وصف أو شرح أو تدليل على مكامن القوة أو الضعف، أو لا تستطيع الكشف عن خبايا النص، والحديث هنا دوما عن نصوص تستحق النقد، ومع ذلك لا يمكن إلغاء نموذج التذوق من تاريخ النقد بوصفه مرحلة ابتدائية أسهمت في إذكاء الفطنة النقدية ولفتت إلى ما يراد قوله عن النص، أو ما يمكن قوله عنه وعن غيره في سياق حر.

وهنا يتأرجح الخطاب النقدي بين الحضور والغياب على مستويين، الأول: بين وجوده الفعلي والعملي في المتابعة والتحليل، وبين كونه مجرد إشارات تدل على غيابه، والثاني: يتعلق بالمدونة النقدية في مستوى الملفوظ والمكتوب أو الشفاهي والكتابي ، فإذا افترضنا حضوره على مستوى الفعل والعمل فإنه صار غائبا، لأنه لم يكن مدونا هو أو النصوص التي عاصرها، ومن هنا يترشح الجدل حول النوع الأدبي الأول في الظهور، أهو الغنائي الذي يعززه الاستنتاج العقلي والذوقي أم الملحمي الذي يرشحه الواقع الكتابي المدون؟

فمن الثابت في تاريخ النقد أنه لم يكن هناك خطاب نقدي واضح ومحدد، لأنه يفتقر إلى تحديد الموضوع الذي يتطلبه والمنهج الذي يسير عليه، فالنقد هو ابن المعرفة العلمية التي يعززها المنطق والشاهد، وهو أيضا فاعلية منظمة على وفق شروط موضوعية، وهذا يعني الاعتماد على الذوق الأدبي لا ينحسر في حقبة تاريخية بعينها، لأنه قد يظهر في أشد مراحل النقد قوة، إذا ما صدر عن شخصية لا تمتلك العدة النقدية التي تناسب النص والمرحلة، لكن يمكن القول أن التذوق قد يهيمن على حقبة بعينها، وقد يوجد في حقبة أخرى بمستويات أقل.

ب ـ الخطاب الفلسفي والخطاب النقدي:

إن تاريخ الفكر والنقد والفن لا يعرف بدايات ونهايات معلومة بدقة، لذا فإن فصل حقبة نقدية عن أخرى أمر بالغ التعقيد، لكن الذي يبدو أن شوطا كبيرا من النشاط الأدبي والنقدي قد قطع لنصل إلى تحديد افتراضي لنقطة جديدة من تاريخ النقد، ويبدو لنا أن الخطاب النقدي كان يتداول ضمن نسق خطابي مغلق يمكن أن يسمى **الخطاب الفلسفي**، فقد برزت فلسفة أفلاطون في مقدمة الفلسفات التي تناولت خطاب الحقيقة على أنه الخطاب الذي يجب أن يحتضن جميع الخطابات الاخرى ويوجهها، وبالتالي تتجه فلسفته إلى رفض جميع الخطابات التي لا تدخل في إطارها العقلي، والحقيقة أن الخطاب الفلسفي لأفلاطون بخصوص الشعر والفنون يعد مفتتحا للخطاب النقدي بمعناه الواضح، لكن طبيعة هذا الخطاب هي التي تختلف، فيمكن القول أنه خطاب/ ضد شعري، بالمعنى العقلي للكلمة، لأنه يقوم على إلغاء خصوصية الفنون ويصادرها لصالح

[11] اسم وطبيعة النقد: مونرو بيردسلي، ضمن: ما هو النقد؟، مرجع سابق، ص155.

الخطاب الفلسفي كما فعل مع كثير من الخطابات الأخرى كالسياسة والأخلاق، فـ "لم يكن أفلاطون المؤمن أبدا بأن الفلسفة هي السبيل لمعرفة **الحقيقة** راضيا عن إعطاء هذه المكانة الرفيعة للشعر والشعراء في تنشئة الأجيال وإعدادها للمستقبل. أما السبب كما وضحه في الكتاب العاشر من الجمهورية فيكمن في أن كل الفنون التي تمارس المحاكاة ضارة ومدمرة لأنها تمارس مفعولا سلبيا على القوى العقلية عند المستمعين الذين لا يملكون المعرفة الكافية التي تحميهم من شرور هذه الفنون وأضرارها، ولهذا من الواجب قول الحقيقة على الرغم من محبتي منذ الصغر لهوميروس لأنه بالنسبة لي يعد استاذا لجميع الشعراء التراجيديين وقائدا لهم ولكن الحقيقة تأتي قبل حب هوميروس وسأقولها"[12] ومجمل ما يمكن قوله هنا هو أن أفلاطون لفت إلى ضرورة العناية بالأدب، بوصفه حقلا لا يمكن تجاهل فاعليته الاجتماعية والنفسية إلا أنه حاول ايضا تحجيم هذا الحقل وتغيير طبيعة موضوعه، فعقلنة الخطاب الشعري والأدبي عموما هي الغاء لقيمته الفنية التعبيرية، وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن الدور الذي يؤديه الخطاب الفلسفي بخصوص الأدب هو خطاب مضاد للحقيقة الأدبية، لأن الحقيقة الفلسفية تدفعنا نحو معقولية يقينية بينما تنحو الحقيقة الأدبية نحو حقيقة لا عقلية، أو بالأحرى افتراضية.

ولحسن حظ الخطاب النقدي فإن بروز الفيلسوف أرسطو يشكل منعرجا مهما في تاريخ هذا الخطاب، لأنه بملكته التحليلية حرر بعض مقولات النقد من مقولات الفلسفة، ففلسفته تسير في نسق أكثر فضائية من ذي قبل، فهو يجعل الفلسفة منهجا في التفكير في جميع الحقائق الفلسفية وغير الفلسفية، وليست إطارا لنتائج قبلية قد لا تجد مشروعيتها إلا في إطار ما يرسم لها سلفا، وهذه الدينامية والحيوية جعلت اشتغاله بالنقد يتوصل إلى فهم موضوع النقد أولا، إذ"تبين صناعة الشعر أن المعرفة عند أرسطو تعتمد في المقام الأول على قراءة منهجية تحليلية متأنية وعميقة للنص الأدبي. فعلى الرغم من كونه فيلسوفا من الطراز الأول، إلا أنه كناقد لم يعالج الأدب في إطار المجرد والمطلق، ولكن حلله من خلال التعامل مع النص الأدبي بشكل مباشر باعتبار هذا النص اكتمالا للفعل المحاكى. ولهذا جاء نقد أرسطو على شكل وثيقة راقية لرجل عرف كيف يلاحظ ويشاهد ويفصل الأنواع والأجناس الأدبية ويحلل خصائصها ومميزاتها"[13] وعلى الرغم من ذلك فإن النقد الذي يقدمه أرسطو يعتمد في الواقع على الانتقائية والميل للتعقيل أيضا، وهذا يعني أن الشعرية لديه ملتبسة أو تفقد أبرز خصائصها النوعية، فهي لم تكن تعني الخلق والابداع ولكنها تعني البناء والتأليف، ولذلك لا تتطرق التحليلات الواردة في كتابه **الشعرية** أو **فن الشعر** إلى كل أنواع الإنتاج القولي الذي نسميه الشعر لأنه أغفل الشعر الغنائي المنفرد ولم يشر إليه وهذا يعني أنه لم يدخل ضمن نطاق الشعر، فالنص الشعري على وفق نظرته يتحلى بنمط تأليفي خاص، ويرمي إلى تحقيق غاية محددة التمثيل[14] وبهذا لم يكن للنقد أن يضاهي ما أنتج من نصوص في الكم والنوع.

وفي السياق نفسه تأخذ الفلسفة دورها بوصفها محكمة نقدية طوال العصور الوسطى، إذ أن هيمنة الفكر المسيحي على الساحة الفكرية برمتها وضع النقد في زاوية ضيقة عليها أن تمارس عملها في ظل رقابة الكنيسة، فقد وظف آباء الكنيسة الحقول الفكرية لخدمة اللاهوت المسيحي وطالب فكرُ العصور الوسطى الفلسفة بـ "أن تقف من اللاهوت موقف الخادم من سيده وجعل الإيمان شرطا سابقا للفعل فقال بأنه لكي تعقل لا بد من أن تؤمن"[15] ولهذا فإن الكتابات الأدبية هي أول ما عليه أن يلتزم بهذه التعاليم، ومن ثم

---

[12] النظرية النقدية الغربية: عيد الدحيات، ص28.

[13] النظرية النقدية الغربية، ص41.

[14] انظر: تحليل الشعر: جان - ميشال غوفار، ص9.

[15] مدخل إلى تاريخ الآداب الاوربية: عماد حاتم، ص107.

فإن النقد الذي يجب لن يمارس عليها يقع في خانة النقد الأخلاقي استنتاجا، الذي يتطلب الاعتراف بنوع معين من الآداب ونفي غيرها، وتدعو إلى فرض موضوعات معينة على الأدب تأتي من خارجه، ولا تتولد عن الخصائص الفنية القارة في النصوص، وهذا جزء من استراتيجيتها الشمولية، لذا فإن جل الكتابات الأدبية لا تأتي نتيجة إبداع أولا ولكنها تعتمد على ما موجود في تلك التعاليم "وفي قصائد برودانس -حوالي عام 400م- شاعر لاتيني مسيحي، تتمثل الفضائل في صراع دائم مع الشرور، وغالبا ما تكون الأخلاق من الكتب المقدسة أو من الكتابات الورعة"[16]، وعلى ذلك فإن الخطاب النقدي لم يكن خطابا مستقلا، لا في موضوعه ولا في منجهه، فمعظم الكتابات الأدبية، وأهمها من الناحية الفنية والأدبية، ظلت بعيدة عن أضواء النقد حتى وقت متأخر، ولم تسلم كثير من الكتابات المهمة من سطوة هذا المد الفلسفي مثل كتابات الشاعر الإيطالي دانتي الذي نجد ملامح الفكر الوسيطي في ثنايا كتاباته، حتى في الكوميديا الإلهية فقد حملت بصمات المضامين الوسيطية وأفكارها[17]، فهوية الخطاب النقدي تبدو مفقودة إلى حد بعيد في ظل الخطاب الفلسفي، إذ إنها ظلت منزوية في زاوية من زوايا التاريخ الأدبي والثقافي وتحتاج إلى استخلاص وإعادة تأريخ.

ج - الخطاب العلمي والخطاب النقدي:

بات من المعروف أن عصر النهضة وضع العتبات الأساسية لكل ما هو حديث في الفكر العلمي والإنساني، بفضل تركيزه على النتائج الملموسة التي حققها العلم التجريبي وانعكس ذلك جليا على الدراسات الأدبية والنقدية بوصفهما نموذجا للدراسات الإنسانية، وصارت مهمة الناقد محاولة تطبيق المناهج العلمية على الآداب والفنون، لأن الفكر البشري لم يعد مؤمنا بأي ضرب من ضروب المعرفة من دون التحقق والتمحيص بحثا عن نتائج مقنعة تتخلص من آثار الانطباعية والتصورات المسبقة و"المقصود بالمنهج العلمي تطبيق قوانين العلم الصرف على الأدب، فقد تطورت العلوم الفيزيائية والكيميائية في القرن التاسع عشر بفضل استعمال منهج جديد ينصرف عن الوقائع إلى القوانين ويطبق النقاد بجرأة منهج التوضيح العلمي على المؤلفات الأدبية"[18] ويتجلى ذلك باستثمار نتائج البحث التاريخي وتطبيقه على الأدب ومحاولة اكتشاف العلاقات التاريخية المرتبطة بالنص الأدبي من خلال معطيات الزمان والمكان "فكان هذا يمثل الترجمة العلمية النزعة التاريخية في دراسة الأدب ونقده، وضرورة الاهتمام بالتوثيق، وعدم قبول الأشياء كمسلمات، والاعتماد على العقل والبرهان، والتعامل مع النصوص من منطلق درجة نسبتها إلى أصحابها وتوثيقها"[19] إلى غير ذلك، وبهذا فإن المنهج العلمي يركز على ظروف إنتاج النص وآليات تكونه وعلاقاته الخارجية ، وارتباطه بغيره من الآداب والفنون، وذهب إلى التعليل والاستنتاج ضمن حتميات يفترضها لا تهتم بالأدب وتهتم بالأدب، إذن هو لم يركز على طبيعة الموضوع الأدبي وخصوصيته وفرادته بوصفه مادة أدبية بالمقام الأول، بل وضعه ضمن السياق التاريخي لإنتاج المعرفة وتكونها واضمحلالها بعامة، لكن اللافت في هذه المرحلة هو ظهور التيارات الأدبية كالرومانسية مثلا، التي أسهمت في زعزعة القناعة في ما يمكن أن يكون عليه النص الأدبي، وطالبت بتغيير التصورات السابقة عن الأدب من ناحية موضوعه تبعا لرؤيتها للتاريخ؛ إذ كانت"هي التي تبلور وعي الأنسان بالزمن وتصوره للتاريخ، ووضوح

[16] النقد الجمالي: أندريه ريشار، ص73.
[17] انظر: مدخل إلى تاريخ الآداب الأوربية، ص112.
[18] المدخل إلى مناهج الدراسة الأدبية، ص114.
[19] في النقد الأدبي: صلاح فضل، ص18.

فكرة التسلسل والارتقاء"[20] إلا أن ذلك لم يؤثر في منهج النقد بل في الموضوعة الأدبية، لأن الرومانسية تكونت من تيارات تتباين فيما بينها في التصورات والرؤى، فمنها ما يتجه للمستقبل ومنها ما يحتفي بالماضي، لكنها لفتت إلى ضرورة إدراك خصوصية الأدب التعبيرية والفنية التي يجب أن تتحرر من القواعد الصارمة والقوالب الجاهزة.

وقد استمرت هيمنة العلوم التاريخية على النقد لمدة ليست بالقليلة ، فقد استثمر كل من التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع من الأدب للتدليل على الحقائق التي يشتغل فيها وتكون مدار اهتمامه ، فلم يكن النقد ليتحرر من تلك التبعية موضوعيا ومنهجيا، لأن النتائج التي كان يتوصل إليها كانت تصب في مصلحتها أكثر من مصلحة النقد، إلا أنه لابد من القول أنه أفاد من تلك التخصصات لفت الانتباه إلى ضرورة تشخيص موضوعه وضرورة استقلال منهجه في الدراسة والتحليل ليكتسب شرعية الحضور.

د- الخطاب/ والخطاب النقدي:

كانت المراحل السابقة التي تم عرضها في مجال تاريخ النقد تشكل جزءا مهما من مرجعيته ذات البعد الفلسفي والعلمي على الرغم من اشتغال الجانب الأدبي والنصوص في الطرف الآخر التي كانت من جهتها تتحرك في فضاءات مختلفة وبيئات متباينة، وكثيرا منها كان بعيدا عن عدسة العلماء أو تصورات الفلاسفة، وتشكل تلك النصوص الحلقة المفقودة من تاريخ النقد التي تدل عل التطور الطبيعي للأشياء في ظل سيرورتها وصيرورتها، ونقول هذا لأن الموضوع الأساس للنقد هو الأدب وغياب الموضوع أو تغييبه يعني التضحية بالجزء الأهم من العملية النقدية والخطاب النقدي ، ويبدو للمتمعن أن هذه الحال استمرت حتى وقت قريب، في محاولة افتكاك النقد لموضوعه ومنهجه من الحقول الأخرى وهذا لا يعني أن جميع المباحث الفلسفية والعلمية لم تقدم أية خدمة للخطاب النقدي كما ذكر، بل أفاد النقد من جميع الملاحظات والممارسات السابقة بطريقتين على نحو مجمل، فأما الأولى: فهي نقدها ونفي ما اتبعت من مناهج وما توصلت إليه من نتائج، والثانية: فقد استعانت بها بوصفها أصولا معرفية يمكن اقتراض بعض خصائصها المنهجية والفكرية التي نجحت في تطبيقها على حقولها.

وما يمكن قوله أن النقد بمعناه المجرد- إن جازت لنا هذه التسمية- شهد تحولا كبيرا عندما أسفرت جهود متوازية للغويين ونقاد ومنظري أدب عن تجاوز كثير من القضايا الفكرية التي تبناها النقاد سابقا. ومن تلك القضايا قضية التسلسل التاريخي وترديد الأفكار المتناقلة والتقليد إلى ضرورة التعبير عن خصوصية هذا الميدان وخصوصية الأفكار التي تكون مادة موضوع النقد[21] ولم يكن ليتم ذلك لولا الانكباب على تفحص ما جاءت به تلك المحاولات، وما قدمته للأدب أو بالأحرى ما قدمه لها الأدب إن صح التعبير، ومن هنا سيتم الاهتمام بالأدب بوصفه عالما له استقلاله وخصوصيته، ولذلك "تم جلب الأنظار وبطريقة قوية إلى ان ميدان البحث هو العمل الأدبي نفسه، بوصفه كيانا موضوعيا قائما بذاته ومكتفيا بوجوده، وأنه لذلك قابل لأن يدرس على نحو ما تدرس الحقائق الموضوعية الممثلة لذاتها، دون أي إحالة إلى تصورات غيبية، ودون الاستعانة بأي عناصر خارجية، سواء اشتقت هذه العناصر من البيئة والعصر والجنس أو من السيرة الذاتية للمؤلف نفسه، وفي هذا يتمثل التحول المنهجي الذي يفرق بين الاتجاه العلمي كما تمثل في القرن

[20] في النقد الأدبي، ص16.
[21] انظر: نقد النقد، ص18.

التاسع عشر وكما تمثل في القرن العشرين"[22] ومن هنا صار التحول الجذري الأهم في تاريخ النقد، لأنه سيعتمد على أسس جديدة تكون من صلبه، وأبرز ما في ذلك التطور الذي أحدثه علم اللغة، الذي لفت إلى تجلي حقائق العلم الإنساني ومكوثها في اللغة، فسرية اللغة هي سبب من أسباب صعوبة البحث فيها وكشف هذه السرية هو الذي أعطى البحث اللغوي خصوصيته وجعل منها مثار بحث وتقص، فصار الخطاب من خلال مشكلة اللغة موضعا جديرا بالاهتمام، بل إنه صار الميدان العلمي الجديد الذي يقف على الطرف الآخر من معادلة المعرفة الذي يقابل المعرفة العلية في العلوم الصرفة، ولذلك فإن البحث اللغوي الحديث يعد مطلعا للتناول العلمي للخطاب بوصفه مجالا للبحث في الدراسات الإنسانية[23] فتمت عملية التنبه إلى الخطاب بوصفه مجالا للبحث سينتشر في مختلف مساحات الثقافة والفكر والعلم، بل يمثل المظهر الذي يميز بين حقل وآخر فـ "سرعان ما أصبح الخطاب في العصر الحديث موضوعا للبحث في الفكر الغربي، إذ خصه كثير من المفكرين والفلاسفة بالعناية والاهتمام"[24] ومن هذا المنطلق تظهر دراسة الخطاب بوصفها حقلا جديدا في المجال الإنساني يقابل البحث العلمي في الحقول الأخرى ولذلك تطلب تجلي هذا المجال الجديد المزيد من البحوث والدراسات التي تبحث في مفهوم الخطاب ونظرياته وأسسه ومراميه، وهذا ما دعا الباحثين إلى التركيز على خصوصية هذا الموضوع واستقلاله، وضرورة وضع حدود تقريبية له، وبالأخص لاعتماده على النظرية اللسانية التي يتداخل فيها الشعر مع الخطاب في أكثر من تفسير، ومن هنا يشهد الخطاب النقدي تحولا جذريا ينبعث من قلب علم الخطاب أو نظريته، وينتقل الخطاب النقدي من الدراسة العرضية إلى الدراسة التخصصية الموضوعية في الخطاب النقدي. و"نرى أن النقد الأدبي قد أنجز نقلته المعرفية مقتفيا أثر الفكر اللغوي في إنجاز تحول الإيبستيمي: بالتحرر من سطوة الزمن الفيزيائي. فأما الفكر اللغوي فبأن دخل فضاء الزمن المنهجي، وأما النقد الأدبي فبأن دمج رحاب الزمن اللغوي... فالقفزة الكيفية التي ما فتئ النقد الأدبي يستثمرها هي بالأساس رأس من رؤوس أموال الفكر اللغوي... إن النقد قد أحسن صنعا عندما استجاب تاريخيا لحركة التطور المعرفي، بل نقول أنه أثبت كفاءة عالية عندما استبق الزمن فاستلهم الجديد باستشراف ثاقب في الوقت الذي تخلفت فيه عن الركب معارف إنسانية أخرى كالتاريخ وعلم الاجتماع، بل والفلسفة"[25] إذ تمثل هذه المرحلة حضور النقد بامتياز، فقد وضع قدمه في ساحة المعارف الإنسانية بطريقة موضوعية تضمن له استقلاله.

ثانيا:النظرية النقدية:

تمت الإشارة إلى أن النظرية النقدية هي الأساس الفكري الذي تنطلق منه الممارسة النقدية وتعود إليه وكانت قد اتسمت بالعمومية وعدم التخصص على مر العصور التي مر بها تاريخ النقد، أما الآن فقد نشأ تحليل الخطاب بطريقة موضوعية في حضن اللسانيات التي قررت "منذ مطلع القرن العشرين، ان الكلمة لا تحيل على شيء، إنما على معناه. وترتب على ذلك أن الخطاب لا يحيل على المرجع إنما على الأنظمة التي تؤطره وتحدد مساره، ومن ثم فالبحث عن حقيقة حقبة تاريخية، أو عصر من العصور، أو ظاهرة ما، يجب

[22] مناهج النقد الأدبي بين المعيارية والوصفية: عزالدين إسماعيل، مجلة فصول- القاهرة، مج1،ع2، 1981م، ص18.

[23] انظر: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى: بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، ص24.

[24] الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة: عبدالله إبراهيم، ص169.

[25] الأدب وخطاب النقد، ص86.

أن يتجه إلى الخطاب الذي تمثلت فيه روح تلك الأشياء ومعانيها وليس هي، وعليه ، فإن الحفر يتجه إلى الخطاب مباشرة لسبب رئيس، هو أن الخطاب مثل لغويا البنية الثقافية لتلك الحقبة أو ذلك العصر"[26] ولابد من الإشارة إلى الأهداف التي كانت اللسانيات تبحث عنها هي السيطرة على موضوعها من خلال تحديده وتأطيره وتمييزه عن موضوع العلوم الأخرى، إنسانية كانت أم علمية، وذلك لتضمن خصوصية هذا العلم الجديد وتفرده، كما سعت إلى أسس منهجية للدخول إليه ومعالجته، وبذلك تضمن تحقيق موضوعية أكبر ودقة أعلى في مجال دراستها، لأن أية دراسة موضوعية تتطلب صياغات علمية تحول الظاهرة من العرضية إلى السببية ومن العشوائية إلى المنهجية، وبذلك تستطيع أن تنتزع الاعتراف بها بوصفها علما له موضوعه ومنهجه[27] وعلى هذا الأساس نجد أن الأصول الفكرية للسانيات تبدو أبعد مما يمكن اكتشافه فيها عفويا، إذ اعتمدت هذه الأصول على مناهج العلم التي تأثر بها سوسور في عصره، خصوصا في المنهج الوضعي والتجريبي، كما استندت إلى بعض الإشكالات الفلسفية التي بدأت تستشعر عدم تحديد موضوعاتها ، خصوصا أن "الخطاب في الثقافة الغربية، نشأ أو الأمر إلى جوار اللوغوس للإحالة إلى الكلام أو الحديث الذي يتصف بميزات عقلية"[28] ومن هنا تم تحديد الموضوع الذي تريد اللسانية بحثه، بينما حاولت من زاوية اخرى وضع الخطوط الأساسية لمنهج التحليل عبر منظومة فكرية ومفهومية واصطلاحية تنتمي بالمجمل إلى النظرية اللسانية، وبما أن مادة اللسانيات أو موضوعها كان في متناول اليد متمثلا بالنصوص والخطابات فقد "أصبح النموذج اللساني، معيارا قياسيا لدى الكثير من العاملين في العلوم الإنسانية، واستفاد النقد الأدبي أيضا، شأن غيره من الكشوفات اللسانية. وبقدر تعلق الأمر بموضوع الخطاب تحديدا أو تحليلا فقد أولت اللسانيات هذا الموضوع جل عنايتها، لأنه المظهر الذي تتجه إليه مباشرة إجراءات التحليل"[29] وقد وجد تحليل الخطاب له تطبيقات أخرى في الميادين الإنسانية الأخرى كالفلسفة والأنثروبولوجيا والاجتماع والنفس وغيرها لأنها تتمفصل مع الدراسات اللسانية لدراسة الخطاب.

وبما أن الخطاب والنص هما لب النظرية اللسانية بوصفهما موضوعا لها، فقد اتسعت مجالات تحديدهما والتمييز بينهما والبحث في انماطهما إلى درجة يصعب حصرها، ولأنهما لا ينفصلان عمليا، فقد تطلب النظر فيهما. وقد اتسعت دائرة مفهومهما وتداخلت إلى حد يدعو إلى تحديد كل منهما فجرى التمييز بينهما على أن النص ينحصر في بنيته اللغوية التي تحافظ على كينونتها المادية متجسدة بمفرداتها وعباراتها وجملها، أي في حدودها اللغوية التي لا تتأثر بالمعطيات الزمنية للكتابة أو النطق، وإنما الذي يجعل منها كيانا متغيرا هو طبيعة التلقي، على النقيض من الخطاب الذي يتكون آنيا في اندماج النص بالواقع ومن خلاله، فالواقع والظروف الاجتماعية والحال وغيرها هي التي يتمظهر فيها الخطاب [30] وهذا يعني أن يشترك الخطاب والنص في الخصائص البنيوية بوصفها مادة لغوية تحكمها قوانين الاصطلاح اللغوي، بينما ينفرد الخطاب بخصيصة الانسجام وهي مسألة ترتبط بالعرف والاستعمال، ومن هنا يظهر التمييز بين النص والخطاب على أسس بنيوية وأخرى تداولية وعلى هذا الأساس "يكاد يجمع أغلب اللغويين أن النص يمثل المظهر الشكلي المجرد للخطاب، بينما يعني هذا الأخير الممارسة الفعلية الاجتماعية للنص" [31] وفي هذا الجانب يقع النص في إطار المتمثل أو المتموقع في الصياغات اللغوية المتضافرة المكتفية بذاتها،

---

[26] الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص 172-173.

[27] انظر: تشريح النقد: نورثروب فراي، ترجمة وتقديم: محيي الدين صبحي، ص15-16.

[28] الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص182.

[29] م. ن، ص174.

[29] راجع: بعض خصائص الخطاب: محمد مفتاح، مجلة علامات في النقد-جدة، مج9، ع30، ج35، مارس 2000م.

[30] مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه: محمد الأخضر الصبيحي، ص73.

بوصفها بنيات قابلة للوصف والتحديد، ويقع الخطاب في فضاء يتحرك عبر نسيجه اللغوي في السيرورات الثقافية والاجتماعية، ولغرض تحديد معالم كل من النص والخطاب بناء على محددات الخطاب إذ تمكن الاشارة إلى"وجود ثلاثة مكونات في كل خطاب- المكون الأول: كل خطاب مكون من جمل-المكون الثاني: كل خطاب مكون من قضايا ودلالات- المكون الثالث: كل خطاب مكون من علاقات... كما ان كل مكون يحيل إلى مستوى من مستويات تحليل الخطاب وفق ما يقدمه النموذج الآتي:

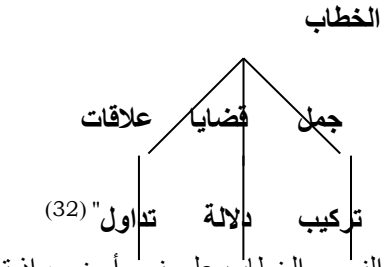

(32)"

ومن هنا يمكن الفصل بين النص والخطاب على نحو أوضح، إذ تمثل الجمل وحدات قارة في كل من الخطاب والنص ولا مناص من وجودها فيهما، بل هي مادتهما التي تبدا منهما وتنتهي اليهما، وهي المسالة اللغوية بتجليها النحوي المقبول اصطلاحيا وعرفيا، وتمثل القضايا الوحدات المعنوية التي تتلبث في التراكيب المنسجمة بحيث تؤدي الوظيفة المنطقية لمقبولية الكلام أو عدمها فلا يمكن أن يستقيم نص أو خطاب دون هذا التلازم المنطقي بين قضاياه التي تعزز وحدته وتؤكد خصوصيته، باختلافها عن غيرها من الخطابات والنصوص الأخرى فأي تنافر بين القضايا يهدد وحدة النص والخطاب ويبدد منطقيته.

وبما أن كلا من الجمل والقضايا يمكن وصفهما وتحديدهما وبيان العلاقات الشكلية بين مكونات أو عناصر كل منهما، فيمكن جمعهما تحت ما يسمى السياق "وهذا السياق على صنفين: خارجي وداخلي، أي مفارق ومحايث، أو هما سياق أكبر وسياق أصغر، فنحن عندما نتناول الخطاب اللغوي- ولو في اصغر مقاسمه وهو الجملة النحوية التامة. نعتبر بمعيارين: المعيار الداخلي وهو حيثيات التركيب المتصلة بعلاقة أجزاء الكلام بعضها ببعض ويصطلح على ذلك بالسياق، والمعيار الخارجي وهو حيثيات التداول والتخاطب ويصطلح على ذلك بالمقام، فنحن لدينا إذن عياران: سياق التركيب ومقام التداول"[33] فكل من الجمل والقضايا تقع في السياق الداخلي وهو يشمل الخطاب والنص معا، بينما يتجه سياق التداول أو المقام إلى الخطاب وحده، وبذلك فإن تحلي النص يختلف عن تحليل الخطاب بناء على مكونات كل منهما ووظيفته "فالخطاب يكون موضوعا لبحث القارئ، أما النص فهو الذي يكون موضوعا للقارئ النموذجي الذي يجعل منه حقلا للتحلي والتأويل غير المحدود، وفيما ينطوي الخطاب على نظم قابلة للتعيين والوصف يحتوي على شفرات النص، لا تتوفر على قيمة بذاتها، إن لم تتعرض للاستنطاق والتأويل. إن الخطاب يتصل بالباحث

(31) الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، التشعب والانسجام: جمال بندحمان، ص6-8.
(33) الأدب وخطاب النقد، ص302.

الواصف، أما النص فيتصل بالقارئ المؤول"[34] فالسياقات الخارجية تسهم في إبقاء الخطاب في حيز التداول والقابلية للوصف، وذلك بأنه منفتح على القنوات التي ساعدت على إنتاجه واستقباله وإعادة إنتاجه وتداوله، بينما تختلف عملية استقبال النصوص وتوجيهها لا سيما في الأدب والنقد "فآلية التلقي عند التوسل بها في تشخيص النص الإبداعي تشتغل في زمن الإفضاء بالنص عند الاحتكاك باللحظة الشعرية، بينما تشتغل آلية استقبال النص النقدي من حيث تجوس على الأنساق التي هيأت ميلاده ثم على الأنساق التي واكبت شيوعه ورافقته في ترحاله، فاستقبال الأدب آلية محايثة للرسالة الإبداعية واستقبال النقد الية مفارقة للرسالة النقدية، الأولى جمالية والثانية ثقافية ، ولكل واحدة منهما سمات مخصوصة"[35] وهذا يدلل على أن اشتغال كل من النص والخطاب في المنطوق أو التمثيل اللغوي يحتاج تحليله إلى جملة عناصر، فأما الأول فهو تحديد المنطوق وكشف علاقاته، وهذه العلاقات هي التي تبين قابلية كل منهما على التفسير، إلا أن تفسير كل منهما يختلف عن تفسير الآخر فلا يمكن تفسير النص إلا في ضوء نسيجه الداخلي، ولهذا تبقى عملية التفسير منطوية على ذاتها بوصفها بنية لا تنتمي إلا لعالمها الخارجي بوصفها رسالة مشفرة، ولهذا فإن فتح نوافذها نحو الفهم والمعنى والدلالة لا يتم إلا بالتأويل وليس بالسياقات الخارجية، فهي تحتاج إذن إلى إعادة صياغة التمثل على نحو جديد لا يضعه إلا المؤول، أما في الخطاب فإن التفسير مرتبط بالسياقات الاجتماعية الأخرى لذا فهي ليست رسالة منكفئة على ذاتها لغويا، بل تشتغل في عالم التداول.

ومن هنا يمكننا القول أن تحليل الخطاب النقدي يستعين بجملة من الأمور التي تعطيه وجهة معينة وتعينه على فهم مقاصده، ومنه تاريخ الخطاب وتحولاته الفكرية والمعرفية، وأطراف الخطاب من منتج ومستقبل، ومؤسسات الخطاب، كالمؤسسات الفكرية والسياسية والدينية والاجتماعية، والسيرورات الثقافية والاجتماعية بعامة، لذا نجد أن تحليل الخطاب يتموقع ويتمفصل مع عديد الفروع المعرفية، كالتحليل النفسي أو السوسيولوجي أو اللساني أو الأنثروبولوجي وغيرها[36]

ثالثا: الإجراء النقدي(تطبيقات الخطاب):

يعد الإجراء النقدي تتويجا للفكر النظري متمثلا بتاريخ النقد ونظريته، فإذا كان التاريخ النقدي يبحث في حدود موضوع النقد، وكانت النظرية تبحث في منهجه، فإن الإجراء هو هدف العملية النقدية برمتها، ولذلك لابد لأي خطاب نقدي أن ينجز وعوده باستجلاء مكامن النصوص والكشف عن بواطنها. وقد تغير هدف النقد عبر تاريخه ونظرياته إذ كان يبحث عن أحكام قطعية وربما قد تكون جاهزة وانطباعية، لكن الخطاب النقدي بمعناه المعاصر لا يركز على جيد النصوص أو رديئها أولا، بل يتجه إلى مقبولية النص أو معقوليته نقديا، لأنه يؤمن بالقيم الثقافية وتعددها وحركيتها، ولذلك فإن الأهداف التي يريدها الإجراء أهداف نقدية محضة، غايتها الاستقراء والتحليل والتأويل تبعا للأنظمة المنهجية التي تعتمد في التطبيق، ومن هنا يمكن القول أن الإجراء النقدي لا يعني الولوج إلى كنه النص دون استبصار وتخطيط، ولهذا فلابد لكل إجراء نقدي من استراتيجية تأخذ بالحسبان أطراف الخطاب النقدي برمتها، لأن عملية التحليل لا تنفصل عن البنية التكوينية للناقد التي يغذيها كل من تاريخ النقد ونظريته ووسائله الإجرائية فالناقد

---

[34] الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص184-185.

[35] الأدب وخطاب النقد، ص311.

[36] راجع: في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل: عبد السلام حمير، والمصطلحات المفاتيح لتحيل الخطاب: دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن.

عندما يقدم على تحليل نص ما يوظف كل عدته المفهومية من أجل تحرير نقد يتسم بالموضوعية والفرادة، ولذلك فهو يستعين بتاريخ النقد ليروز النقطة التي يريد أن ينطلق منها لأن المفاهيم النقدية لها مرجعيات تاريخية وأصول معرفية، ومعرفة هذه الحقائق التاريخية يجعله قادرا على تجاوز الارتباك المنهجي ويحدد مسار عمله الحالي، فضلا عن أن المفاهيم التي يتبناها النقد تتسم بالطابع المنهجي الذي يتميز بالدقة من جهة وهي تتصل بالمنهج، والطابع الثقافي الذي يحمل أكثر من وجه ويعبر عن أكثر من دلالة من جهة أخرى وهي تتصل بالناقد وشخصيته وثقافته، فالناقد إذن يجب أن يستحضر من تاريخ النقد ما يعينه على درء الأخطاء المنهجية ويحافظ على الشروط الموضوعية وهذا ما يوفره تاريخ النقد له.

ومن جانب النظرية النقدية فإن معرفة الناقد بحدود النظرية التي يريد تطبيقها على نصه يسهم إلى حد كبير في تقليص الأخطاء المنهجية التي قد يقع فيها، كما أنها تسهم في إعطاء وجهة واضحة عن طبيعة الممارسة النقدية، فنحن نعتقد أن أحد الأسباب الرئيسة التي تسهم في جعل الممارسة النقدية سطحية وعشوائية هو عدم تشرّب الناقد لمعطيات النظرية التي يشتغل عليها؛ وتتضاعف مناسبات التناقضات في التحليل كلما كانت المفاهيم والمصطلحات والمناهج غير واضحة لدى الناقد، ومن هنا يأتي تأكيدنا على أن رعيلا ليس بالقليل من النقاد الناشئين يمارسون لعبة خطيرة تسمى النقد على غير هدى، ونعتقد أن الاتهامات التي توجه لقسم كبير من الممارسات النقدية اليوم وتصفه بالغموض والتشويش والعبث، سببه عدم وضوح النظرية لدى الناقد، وبالتالي يسيء استعمال مقولاتها، مما يؤدي إلى انتاج خطابات نقدية غير ناضجة أو سطحية. ولذلك بات من الضروري لكل من ينبري للتحليل النقدي أن يطلع إطلاع العالم بالنظرية النقدية وما تتولد عنها من مناهج وأفكار، لأن التطبيق النقدي هو الاختبار الحقيقي للنظرية، إذ إن لكل نظرية منهجها أو مناهجها التي تتميز بالوحدة من جهة والانفصال من جهة أخرى بناء على الزاوية التي تسلط عليها عدسة النقد.

ولكي تكون العملية النقدية ناجحة فإن التاريخ والنظرية والتطبيق يساعد أحدها الآخر فلا يمكن للتاريخ أن يوضح مزاعمه دون الاستشهاد بالنصوص والتدليل بالنظرية، ولا يمكن للنظرية أن تستقيم دون إطار تاريخي وهدف تحليلي، كما أنه لا يمكن للتطبيق أن ينجح دون الاستعانة بالنظرية والتاريخ، ولكن الفكرة المهيمنة حتما ستكون لأحدها بمساعدة الجانبين الآخرين حسب مجال تناول كل منها، فالتاريخ يتقدم عندما نتحدث عن التاريخ والنظرية تتقدم إذا كان المقام للنظرية، والتطبيق يهمن اذا كانت الغاية تحليلية، وهكذا..

فلا مناص إذن من القول أن الخطاب النقدي خطاب تضافري يتمتع بخصائص بنيوية تجعل منه خطابا منسجم العناصر، لا يمكن تحليله دون رؤية منطقية كلية وثقافية، بحيث أن تحليل أي جزء فيه يستدعى حضور بقية الأجزاء.

المصادر والمراجع:

1. الأدب وخطاب النقد: عبدالسلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة- بنغازي، ط1، 2004م.
2. الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، التشعب والانسجام: جمال بندحمان، رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة، ط1، 2011م.
3. بعض خصائص الخطاب: محمد مفتاح، مجلة علامات في النقد-جدة، مج9، ع30، ج35، مارس 2000م.
4. تجلي الخطاب النقدي من النظرية إلى الممارسة: محمد صابر عبيد، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف- الجزائر، دار الأمان- الرباط، ط1، 2013م.
5. تحليل الشعر: جان - ميشال غوفار، ترجمة: محمد محمود، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت، ط1، 2008م.
6. تشريح النقد: نورثروب فراي، ترجمة وتقديم: محيي الدين صبحي، نظرية الأدب(1)، منشورات وزارة الثقافة السورية- دمشق، ط1، 2005م.
7. الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة: عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ط1، 2004م.

8. دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات: بسام قطوس، مكتبة العروبة للنشر والتوزيع-الكويت، ط1، د.ت.

9. في النقد الأدبي: صلاح فضل، اتحاد الكتاب العرب- دمشق، ط1، 2007م.

10. في سوسيولوجيا الخطاب، من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل: عبدالسلام حمير، الشبكة العربية للابحاث والنشر- بيروت، ط1، 2008م.

11. ما هو النقد؟: بول هير نادي، ترجمة: سلافة حجاوي، مراجعة: عبدالوهاب الوكيل، سلسلة المائة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ط1،1989م.

12. مدخل إلى تاريخ الآداب الأوربية: عماد حاتم، الدار العربية للكتاب- ليبيا، تونس، ط1، 1979م.

13. مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه: محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 2008م.

14. المدخل إلى مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي الحديث:عمر الطالب،منشورات عكاظ-المغرب، ط1، 1988م.

15. المصطلحات المفاتيح لتحيل الخطاب: دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف- الجزائر، ط1، 2008م.

16. مناهج النقد الأدبي بين المعيارية والوصفية: عزالدين إسماعيل، مجلة فصول-القاهرة، مج1،ع2، 1981م.

17. نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى: بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط2، 2006م.

18. النظرية النقدية الغربية من أفلاطون إلى بوكاشيو:عيد الدحيات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- الأردن، ط1، 2007م.

19. النقد الجمالي: أندريه ريشار، ترجمة: هنري زغيب، سلسلة (زدني علما)، منشورات عويدات-بيروت، ط1، 2007م.

20. نقد النقد، رواية تعلم: تزفيتان تودوروف، ترجمة: سامي سويدان، مراجعة: ليليان سويدان، دار الشؤون الثقافية – بغداد، ط2، 1986م.